مدونة أمتي .. معالم في طريق جيل الأمة

الحرية السياسية عند التنويريين (العلمانيين)

من كتاب "قضية التنوير في العالم الإسلامي"

محمد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

''الحرية السياسية:

أعلن التنويريون عن أنفسهم أنهم قائمون بمهمة ضخمة، هي تحرير الشعوب من الاستبداد السياسي الذي عاشت في نيره عدة قرون.

وهي مهمة ضخمة بالفعل.. يستحق من يقوم بها أن يقدم له الشكر، وأن يكتب جهاده بحروف من نور.

لقد وقع الاستبداد مبكراً في حياة الأمة، منذ العهد الأموي، ووقع التخلف السياسي من الأمة كذلك، إذ نكلت عما أمرها به رسول الله. صلى الله عليه وسلم. من تغيير المنكر ومجاهدته بالوسيلة المناسبة من وسائل الجهاد، وإن كانت الصورة الواقعية للتاريخ الإسلامي ليست سوداء قاتمة كما يصورها المستشرقون وأشياعهم لغاية في نفوسهم، إنما حوت الأبيض والأسود، وحوت الظلم والمجاهدة كذلك، وإن لم تكن بالدرجة اللازمة التي يجب أن تكون.

واتخذ التنويريون سبيلهم أن يقلدوا أوروبا في هذا الشأن، ككل شأن آخر، فدعوا إلى الديمقراطية، وأن تكون الأمة مصدر السلطات.

ونقف هنا لنسأل: هل كانوا على وعي كامل بما هم مقدمون عليه؟ أم إنها مجرد الرغبة التي عبر عنها طه حسين، والتي أشرنا إليها من قبل: "وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب"؟!

ويجب أن نكون منصفين، فنقول إن لألاء الديمقراطية كان في يوم من الأيام باهراً يخطف الأبصار، وإن كثيراً من عيوب الديمقراطية لم يكن واضحاً في مبدإِ الأمر، إنما كانت الإيجابيات فيها هي الظاهرة للعيان.

ولكن "المسلم" الحق، الذي يرى الأمور بحس الإسلام وبصيرة الإسلام كان يجب أن تستوقفه عدة أمور، ينتبه لها ولا يدعها تفلت من انتباهه.

فأي شيء كان وراء الدعوة إلى الحرية السياسية، ومهاجمة الاستبداد؟ هل كانت خالصة لله؟ أم كانت وراءها أهداف يخطط لها مخططون ماهرون، يقفون وراء الستار ولا يبرزون أمام الجماهير؟!

لقد كان "الاستبداد" مقصوداً به بالدولة العثمانية. وكانت "الحرية السياسية" مقصوداً بها الاستقلال عن الدولة. فمن الذي يحرك "اللعبة"؟ ولحساب من كان التحريك؟

ونقول بادئ ذي بدء إننا لا ندافع عن الاستبداد! لا من الدولة العثمانية ولا من غيرها! لا ندافع عن أمر جرّمه الله. سبحانه وتعالى. وحرّمه:

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[1]

وقد كان واجب الأمة أن تقوّم حكامها العثمانيين، وتمنعهم من الظلم، كما أمر الله ورسوله. صلى الله عليه وسلم.. ولكن المتتبع لتاريخ تلك الفترة يجب أن يستوقفه أن أشد النقد الذي وجه للدولة العثمانية كان هو الذي وجه للسلطان عبد الحميد بالذات، وأن ذلك قد بدأ بعد أن رفض السلطان عبد الحميد أن يمنح اليهود وطناً قومياً في فلسطين!

فأين كان وعي الأمة الإسلامية. والعربية بصفة خاصة، التي لها بها اللاعبون ليضربوا بها الدولة العثمانية. وأين كان موقع التنويريين في هذه اللعبة الضخمة الماكرة؟!

إن الذي قاد الثورة العربية ضد الاستبداد العثماني هو لورنس! لورنس العرب! عضو المخابرات البريطانية الشهير! والذي قاد الجيش العربي كان هو اللورد اللنبي! الذي كتب في مذكراته يقول: لولا معاونة الجيش العربي ما استطعنا أن نتغلب على تركيا!

يا حسرة على العباد!

مرة أخرى نقول إننا لا ندافع عن الاستبداد، لا من الدولة العثمانية ولا من غيرها! وإن كان من واجب الأمة الإسلامية أن تقوّم حكامها وتردهم إلى العدل الذي أمر به الله.

---

(1) [أخرجه مسلم].

ولكن الذي تم بالفعل كان شيئاً آخر، غير الذي أمر به الله! كان الوقوع في لعبة الأعداء الذين يخططون للقضاء على الدولة العثمانية، من أجل القضاء على الإسلام!

كانت الصيحة ضد الاستبداد كلمة حق يُراد بها باطل.. ولكنها خدعت الناس في وقتها فانجرفوا معها، وكان التنويريون على رأس المنجرفين، بل على رأس الدعاة الذين يدعون الأمة إلى الانجراف!

هل كانوا على وعي مما هم مقدمون عليه؟

كان تخطيط الصهيونية العالمية . بمعاونة بريطانيا وفرنسا . منذ رفض السلطان عبد الحميد عروض هرتزل لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، هو تحطيم الدولة العثمانية، وتفتيت العالم العربي إلى دويلات صغيرة مُتنابزة متعادية، تمهيداً لإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، والعرب مشغولون بخلافاتهم، والمسلمون مشغولون بمشاكلهم، فيتم الأمر بلا مقاومة، أو بأقل مقاومة ممكنة، ويستتب الأمر لليهود.

وقد نفذ هذا بالفعل كما قرره مؤتمر هرتزل في سويسرا عام 1897 م، الذي قرر ضرورة إنشاء الدولة خلال خمسين عاما، وفي تلك الأعوام الخمسين تم المطلوب كله. قُسِّم العالم الإسلامي بادئ ذي بدء إلى عرب وترك، وأشعلت "الثورة العربية الكبرى!" التي وضع على رأسها الشريف حسين بينما الذي غذّاها ووجهها هو لورنس، والتي كان أول أعمالها "المجيدة" تدمير الخط الحديدي الذي أنشأه عبد الحميد ما بين إسطنبول والمدينة المنورة، واحتجاز آلاف من الجنود والضابط الأتراك في المنطقة العربية وتذبيحهم بدلاً من إطلاقهم ليقاتلوا في ميدان المعركة ضد الحلفاء، ثم تقسيم المنطقة العربية إلى تلك الدويلات الهزيلة الهشة، الخاضعة للاستعمار البريطاني والفرنسي، ووضع فلسطين بالذات تحت الانتداب البريطاني "وهو درجة من الاستعمار" من أجل تسليمها لليهود في الوقت المتفق عليه!

كما تم في الوقت ذاته أمر آخر على أعظم جانب من الأهمية، هو إطلاق قضية "تحرير المرأة" وقضية "حرية الفكر" الأولى لشغل الأولاد والبنات بعضهم ببعض، وشغل الأمة كلها عن روح الجد والجهاد اللازم لمواجهة المؤامرة الكبرى التي تُدبر للاستيلاء على فلسطين، والثانية لإبعاد لناس عن مصدر قوتهم الحقيقي، الذي يمدهم بالعزيمة والقوة لجهاد الأعداء . وهو الإسلام والقرآن . بإزالة قداسته في النفوس، وتوهين جذوره، وتشكيك الناس في حجيته وضرورة الاستمداد منه.

فأين كان التنويريون في هذا كله؟ في معسكر الإمة الإسلامية أم في معسكر الأعداء الذين يخططون للقضاء على الإسلام؟!

ثم إن "الدولة الحديثة" التي يُنادَى بها، دولة لا تحكم بالشريعة الربانية، إنما يطالب لها "بدساتير" مجلوبة من هنا ومن هناك، من فرنسا أو بريطانيا أو سويسرا.. أو أي جهة غير الإسلام.

فلحساب من يتم ذلك؟ وأين مكان التنويريين في القضية؟!

لقد كان موقفهم واضحا من أول لحظة، فهم ضد الحكم الإسلامي، وضد تحكيم الشريعة، سواء بدعوى أن الإسلام لا علاقة له بالحكم، وليس له نظام حكم (انظر علي عبد الرازق) أو بدعوى أن الحكم الإسلامي حكم استبدادي يجب القضاء عليه من أجل أن تستنشق الشعوب نسيم الحرية، وأن الشريعة الربانية لم تعد صالحة للتطبيق بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من نزولها، تطورت فيها الدنيا كثيراً عن الوضع الذي نزلت فيه الشريعة وكانت صالحة فيه للتطبيق!

لقد كان همّ الاستعمار الصليبي منذ وطئت أقدامه الأرض الإسلامية هو تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم، وتحيكم القوانين الوضعية بدلاً منها.. فكيف تطابقت مواقف التنويريين مع مواقف الاستعمار الصليبي؟!

حين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، جاءت وفي مشروعها تنحية الشريعة الإسلامية، و"تحرير" المرأة المسلمة ونشر الأفكار الأوربية (العلمانية) مترجمة إلى العربية ليقرأها العرب المسلمون ويتأثروا باتجاهاتها.

فأما الهدف الأول قد أعدّ له نابليون عدته بأن تظاهر بالإسلام، وسمّى نفسه الشيخ محمد، وكان يرأس ديوان العلماء، ويخلع عليه الخلع السنية كالخلفاء (!) ويطلب منهم ترويج القوانين التي وضعها بدلاً من الشريعة الإسلامية بحجة "الإصلاح" ولما تنبه أحد العلماء إلى اللعبة (وهو الشيخ الشرقاوي) ورمى "الخلعة السنية" في وجه نابليون، وقال له: لو كنت مسلما حقا لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا، بدلاً من أن تأتي إلى هنا وتنحي الشريعة وتضع بدلاً منها قوانين وضعية، غضب نابليون غضبته الشهيرة، واعتقل الشيخ الشرقاوي، وأمر بضرب الأزهر بالقنابل من القلعة، "ودخلت الخيل الأزهر"[1] واتخذه الجيش الفرنسي "اصطبلا" لخيوله، فكان ذلك سبباً في إحدى الثورات الثلاث الكبرى التي انتهت بطرد الحملة الفرنسية من مصر.

(1) [عنوان كتاب من أجود ما كتب عن تاريخ هذه الفترة لمحمد جلال كشك، يشرح فيه مؤامرة نابليون الصليبية ضد الإسلام.]

وأما الهدف الثاني. "تحرير" المرأة المسلمة. فقد استصحب نابليون معه من أجل القيام به مجموعة من النساء الساقطات كن يسرن في الطرقات حاسرات متخلعات متهتكات. كما وصفهن الجبرتي في كتابه "عجائب الآثار"[1]. فتبعتهن بعض النساء المسلمات، وصرن يقلدهن في خلع الحجاب والسير في الطرقات حاسرات، ولكن ثورة الناس عليهن قطعت عليهن الطريق، فتوقفت الحركة إلى حين!

وأما الهدف الثالث فقد جاء نابليون معه بالمطبعة العربية التي وضعها في بولاق، لهدف مباشر هو ترجمة "الأوامر" اليومية التي يصدرها "سر عسكر"[2] مزحزحاً فيها الشريعة الإسلامية بحجة "الإصلاحات"، وهدف آخر بعيد، لم يمهل لتحقيقه، وإنما أفصح عنه "شاتلييه" مؤلف كتاب "الغارة على العالم الإسلامي"[3] الذي قال فيه إن نشر الأفكار الغربية بين المسلمين كان هدفاً مقصوداً لهدم الإسلام: "ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية في قلوب منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية. فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوروبا، وتمهد السبيل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الأفكار الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها"!!

وحين جاء الاستعمار البريطاني إلى مصر (عام 1882 م) كان من أول أعماله تقليص كيان المحاكم الشرعية، وقصرها على النظر في "الأحوال الشخصية" (الزواج والطلاق والمواريث، وهي كل ما بقي من تطبيق الشريعة) وإنشاء محاكم أخرى تحكم في كل الشئون (المدنية والجنائية) بالقانون الوضعي ولا تحكم بالشريعة.

فماذا كان بين الاستعمار الصليبي وبين الشريعة الإسلامية يوجب هذا الاهتمام كله بتنحيتها عن الحكم؟

كان بينهم وبينها أنهم كانوا يريدون في مبدإ الأمر تنصير المسلمين (حتى يئسوا من تحقيق هذا الهدف واكتفوا بإبعاد المسلمين عن التمسك بالإسلام كما قال زويمر في مؤتمر التنصير الذي أقيم بالقاهرة عام 1906 ومؤتمر القدس عام 1935)[4] وكان تطبيق حد الردة على المرتد مانعاً من تحقيق هذا الهدف.

---

(1) [انظر كتاب عجائب الآثار للجبرتي، الجزء الثاني صفحات: 231، 244، 245، 251، 272، 273، 303، 436، 437.]

(2) [اللقب الذي أطلق على نابليون، ومعناه ''أمير الجيش'' أو ''القائد العام'']

(3) [ترجمة محب الدين الخطيب. انظر مقدمة الكتاب]

(4) [راجع بالنسبة للمؤتمر الأول كتاب الغارة على العالم الإسلامي (سبقت الإشارة إليه)، وبالنسبة لمؤتمر القدس كتاب المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، للشيخ محمد محمود الصواف، الطبعة الثالثة ص 57: 59.]

وكانوا يريدون استغلال الأموال بالربا (في عملية الاستعمار الاقتصادي) وكان تحريم الربا في الشريعة الإسلامية مانعاً من تحقيق هذا الهدف.

وكانوا يريدون نشر الفاحشة في المجتمع المسلم لإفساد أخلاقه، وتوهين عراه، وكان تحريم الزنا في الشريعة الإسلامية مانعاً من تحقيق هذا الهدف.

وكانوا يريدون نشر الخمر في المجتمع المسلم ليتلهى بها عن الصحو اللازم لمقاومة الاستعمار وجهاده، وكان تحريم الخمر في الشريعة الإسلامية مانعاً من تحقيق هذا الهدف.

وكانوا يريدون قبل هذا كله إزالة الحاجز النفسي الذي يحول بين الأمة الإسلامية والذوبان في الغرب وهو الشعور بالتميز في الأحكام التي تحكم حياة الناس، والتي تذكر الناس دائماً في الصغيرة والكبيرة أنهم مسلمون، وأن أعداءهم. الكفار. يحتلون بلادهم ولا بد من إجلائهم عنها بالجهاد المقدس.

فأين كان موقع التنويريين في هذا كله؟ في معسكر الأمة الإسلامية أم في معسكر الأعداء؟!

لقد كانت في الحكم العثماني مظالم.. هذه حقيقة. ولكن الطريق إلى إزالة هذه المظالم لم يكن تنحية الحكم بالشريعة، واستبدال القوانين بها، فقد كان الظلم واقعاً من الحكام، وليس من الإسلام كما قيل للناس لكي لا يتشبثوا بحكم الشريعة، ويوافقوا على تنحيتها وإبدالها.

وكان هناك جمود في الفقه الإسلامي في فترة الركود. هذه حقيقة. ولكن الطريق إلى إزالة هذا الجمود لم يكن تنحية الشريعة عن الحكم، واستبدال القوانين بها، فإن ذلك جلب على الأمة أضعاف أضعاف ما كانت تشكو منه في فترة الجمود.

* * *

ودارت العجلة دورة وجاءت الدساتير.

كيف غاب عن فطنة التنويريين وعقلانيتهم أنه لا يوجد نظام يعمل من تلقاء نفسه، بدون جهد يبذله البشر من جانبهم لتفعيله؟ وأنه لا بد لأي نظام. لكي يكون فاعلاً في عالم الواقع. من تربية الناس على مقتضياته، وتدريبهم على القيام بمهامه، وتحمل تكاليفه؟

وحين جيء بالدساتير، دون أن يقوم التنويريون بإعداد الأمة لها، فكيف كانت النتائج؟

لقد كانت سخرية ليس لها حدود!

حين قامت الثورة المصرية عام 1919 م كان ونستون تشرشل وزيراً في الحكومة البريطانية، فسمع بأنباء الثورة فسأل من حوله: ماذا يريدون؟ (يقصد المصريين) فقيل له: يريدون دستوراً وتمثيلاً نيابياً وبرلمانا فقال: "أعطوهم لعبة يتلهون بها ! Give them a toy to play with".

وهكذا كانت "الديمقراطية" حقاً التي جاءت بها الدساتير! لعبة تتلهى بها الجماهير، دون مردود حقيقي يخلص الناس من سطوة السلطان! والمستعمر هو الحاكم الحقيقي من وراء اللعبة، ومن وراء الأحزاب، ومن وراء الحكومات التي تذهب وتجيء، كما يتحرك الممثلون على المسرح، مع فارق أساسي: أن الممثل يعرف أنه يمثل، وهؤلاء يُخيل إليهم أنهم أشخاص حقيقيون!!

ولكن الطامة الكبرى لما تكن تلك !

إنما كانت الانقلابات العسكرية، وما صاحبها من أهوال!

كانت شكوى العرب التي استثيروا بها على يد لورنس. والتنويريين معه. هي من استبداد العثمانيين ومظالمهم.. ولقد كان هناك بالفعل ما يُشتكى منه من الحكم العثماني، وما يحتاج إلى تصحيح.

وكان البديل الأول للحكم العثماني هو الاستعمار البريطاني والفرنسي بكل ما حمل معه من المظالم، والاستغلال، والقهر، وتذويب الشخصية عن طريق الغزو الفكري والتغريب، وإشعار العرب بالدونية، فضلاً عن احتضان الأقليات التي لم يكن لها كيان ظاهر من قبل، وتكبيرها، والنفخ فيها، وتسويدها على الأكثرية العربية المسلمة، زيادة في الإذلال.

ثم كان البديل الثاني. بعد الحرب الكبرى الثانية. هو الاستعمار الجديد، الذي اختار لقهر الشعوب وإذلالها وسيلة جديدة هي الانقلابات العسكرية، وما تحمل من ألوان البطش والطغيان الذي لا مثيل له في التاريخ.

كان النظام الإداري الذي اختارته الدولة العثمانية للمحافظة على ولاياتها من التفكك والانسلاخ كما حدث للدولة العباسية من قبل، نظاماً ذكياً من ناحية ولكنه فاسد ظالم من ناحية أخرى. كان تعين الولاة لفترات قصيرة، لا تمكنهم من إنشاء جيوش خاصة يسعون بها إلى الاستقلال عن سلطة الدولة (وهو ما حدث في الدولة العباسية) فتظل الدولة

متماسكة إدارياً وسياسياً، ولكن الوالي الذي يعرف أنه غير باق في مكانه إلا فترة قصيرة لا يلتفت إلى مصالح الناس، ولا يهتم بإصلاح الأحوال، إنما يكون همه جمع أكبر قدر من المال من الناس، فيعطي الدولة ما كلفته بجمعه من الضرائب، ويأخذ لنفسه ما شاء بالغصب والاقتدار.

وكان هذا ظلماً لا شك فيه.

ولكن الناس إذا أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم، أو كانوا في متاجرهم أو مصانعهم أو منتدياتهم فهم آمنون من بطش السلطة إذا أدوا ما عليهم من الأموال، لا أحد يتعقبهم ليحاسبهم على ما يقولون أو يفعلون، فضلا عن أن يحاسبهم على ما كان يمكن أن يفعلوه لو أتيحت لهم فرصة الفعل!

أما الانقلابات العسكرية فقد كانت نوعاً من العسف لا شبيه له في طغيانه وجبروته وبشاعة جرائمه في الأنفس والأموال. وما ارتكب في سجونهم ومعتقلاتهم من أنواع التعذيب الوحشي أهوال تقشعر لها الأبدان من سماعها فضلاً عن وقوعها على الذين وقعت عليهم بالفعل. وحشية يتعفف عنها الوحش ذاته.. فالوحش يفعل ما يفعل بفريسته ليأكل، لا لينتقم، ولا ليتلذذ بإيلام الفريسة. أما هذه الوحوش الآدمية فقد كانت تفعل ما تفعل لشهوة الانتقام، وتتلذذ برؤية الألم الوحشي ينزل بأجساد المعذبين، وتصل نشوتهم إلى قمتها إذا وصل التعذيب إلى الإهلاك؟

ولم يكن القصد من هذا الإرهاب الوحشي إكراه المتهمين على الاعتراف بما يراد منهم الاعتراف به من الأعمال فحسب. سواء قاموا بها فعلا أو لم تكن لهم بها صلة أصلا. إنما المقصود إشاعة جو الرهبة في الناس جميعاً، حتى لا يفكر أحد ولا بينه وبين نفسه أن ينبس بكلمة واحدة ينتقد فيها الطاغية، فضلاً عن يقوم بعمل ضده. ومن أجل إشاعة هذا الجو من الرهبة تهاجم البيوت ليلاً، لينتزع منها من يراد انتزاعه، بعد ترويع أهل البيت كلهم صغارا وكبارا، رجالاً ونساء، وبعثرة ما في البيت وإتلافه بحجة البحث عن أسلحة أو منشورات، مع الفظاظة في التعامل والغلظة في التصرفات.

فماذا كان موقف التنويريين من هذا كله؟

إنه العار الأبدي الذي يحملونه إلى يوم القيامة، فقد وقفوا يساندون الطاغية ويباركون طغيانه.. لأنه يذبح لهم المسلمين، ويزيحهم من الطريق!

وي؟!

وأين القيم؟ وأين المبادئ؟ أين "حقوق الإنسان" التي ثاروا على الترك من أجلها؟ أين حق "الآخر" في أن يعيش وأن يُبدي رأيه وهو آمن، ولو خالف رأيه رأي المجموع؟!

كيف صار الأمر حين أصبح "الآخر" هو المسلم؟!

كيف استبيح دمه؟ واستبيح أمنه؟ واستبيحت كرامته؟ واستبيحت آدميته؟ في الوقت الذي يستمتع فيه المجرمون اللصوص وتجار المخدرات وتجار الأعراض بالأمن والراحة، والمال والسلطان؟!

كيف خنس التنويريون إزاء هذا كله.. بل كيف أيّدوا وتحمسوا وصفقوا للطاغية ويده تقطر دماً من دماء المسلمين؟!

إنه الخزي الذي تسقط معه كل دعوى.. ويسقط معه كل تمويه!"[1]

* * *

(1) كتاب قضية التنوير في العالم الإسلامي – محمد قطب (ص 76 : 85) – الطبعة الثانية 2002 – دار الشروق [منقول نصاً بحروفه].